فلسفة الجمال

ESTHETICS

يخلق الحب جمالاً والجمال حبًّا

لفتا نبار

ليس في لغات هذا السيّار الصغير اقدس من هاتين الكلمتين : الحب والجمال : على انك لا ترى موضوعاً اقصر الناس باعاً فيهِ منهم في الحب والجمال . واليك المثل المحسوس الملموس . هذا مقتطفنا العزيز ، وقد ادرك الستين من العمر ، ولم يترك من بحوث العلم والادب شاردة ولا واردة . ولكنّ كم مقالة لهُ في فلسفة الحب ؟ فلست اطرق اذاً موضوعاً مبتذلاً في هذه المقالة . بل اراني غاية في الافتقار الى آراء كبراء الكتّاب والباحثين

***

في كل قلب معبد للجمال ، وفي كل بيت هياكل ومذابح . على ان القليلين هم الذين يعنون بكشف أستاره ، وسبر اغواره . وبحث الجمال والحب هو من خصائص علم النفس — Psychology — ولكن علم النفس تخلى عنهُ للفلسفة ، شأن العلوم في كل بحث عويص ، فانها تتخلّى عنهُ للفلسفة . هذا هو ديدن العلوم ولا سيما العلوم العصرية الممتازة بالمختبرات والتجارب ، وردّ القواعد العلمية الى المقادير والارقام . فانها عاجزة عن خوض مثل هذا البحث . ولذلك جعلت عنوان هذه المقالة « فلسفة الجمال » وليس « علم الجمال »

على ان الفلسفة نفسها ، وهي في ذروة مجدها ، في العصر الباركليسي وبعدهُ ، لم تُعنَ كثيراً بحلّ مسألة « الجمال » . ما هو الجمال ؟ ولماذا نقول عن شيء انهُ جميل ؟ فاقتصر فيثاغورس في امر الجمال على ردّ السلم الموسيقيّ الى قواعد الرياضة ، ووصف الاتزان بالشكل الكروي . وكان الفلاسفة الاقدمون — قبل سقراط — يصفون الجمال بحدود المكان والمقدار . فكانت الموسيقى عندهم « انتظام الاصوات » وجمال المرئيات « انتظام النسب » . اما افلاطون الالهيّ فوحّد ذاتية الجمال والخير . فالمثل الاعلى عنده هو « الجميل » او « الخير » ولم يفسح للموسيقى مجالاً واسعاً في مدينتهِ المثلى الاّ في تثقيف الاحداث

***

وكان الفيلسوف بغارتن الالماني اول من افرد الجمال ، وجعله موضوع بحث خاص . واختصّ غروتشي بهِ فدعي « فيلسوف الجمال » . وقد سبقه اريسطوطاليس فوضع للجمال التعريف التالي :

الجمال هو الاتزان ، وحسن اندماج الاجزاء في الكل : وقد اضاف الفيلسوفان لاسن وونكلمن الى هذا التعريف شيئاً يسيراً . فظل الجمال عندهما كما كان عند اريسطوطاليس ، مسألة : بناء وصورة : من حجر وتلوين الخ . اما « الفيلسوف «كنت » ، واضع المذهب التصوري Idealism يتقدم خطوة الى الامام في تعريف الجمال ، فجعله : ما يسرُّنا لغير انتفاع : فنسرُّ بالجميل لانهُ جميل ، لا لغرض شخصي . بمثل هذا التصور السامي نفهم ماهية الجمال ، او نشعر بتأثيره في نفوسنا وحياتنا

ولكن « شوبنهور » جعل الجمال : شعوراً استاتيكيًّا (وضع بمقارنة لفظة « Esthetics » — فلسفة الجمال —) او غريزة فنية في نفوسنا : وبذلك يتحرر العقل نوعاً من سلطة الشهوة ، فيتمكن من تحقق المُثُل الافلاطونية « العليا » . على ان « هيجل » عاد بنا صفقة واحدة الى العهد الاغريقي ، فجعل الجمال « الوحدة في التعدُّد » ، او تغلُّب الصورة على المادة

قال « انطول فرانس » : اننا نعرف لماذا نقول عن شيء انهُ جميل : ولكن الجمال لشهر مايدور على ألسنتنا ، ويتغنى به شعراؤنا ، وتلهج به نفوسنا ، ويعبده افرادنا وجمهورنا . فهل قُضي على هذه البشرية ان تعبد الهاً تجهله ؟ ! او صحيح ما قيل ان ما يمكن تعريفه ليس بإله ؟ مع ذلك فالجمال يملأ الارض والسماء ، والظاهر والباطن . فهو اشهر ما تراه العين وتلمسهُ اليد . استغفر الله ان الجمال لا يُلمس ولكن يُشعَر بوجوده شعوراً . انما الذي يُرى هو آثاره ومجاليه . اما ماهية الجمال فمستترة وراء تلك المجالي والآثار . شأن الكليات او المثل السامة العليا

الحكمة واسطة ، والغاية وراءها هي احراز الصحة التامة جسماً وعقلاً . فما هي فائدة الحكمة اذا لم تنتهِ بنا الى بلوغ تلك الغاية ، ولم تحملنا على حب الجميل ؟ وما هي قيمة الحكمة اذا هي لم تخلق فينا جمالاً اسمى مما وهبت لنا الطبيعة ؟ فالفن دون علم مسفة . والعلم دون فنٍّ بربرية . والفلسفة تاج الاثنين ، العلم والفن ، على ان الفلسفة نفسها ، حتى الروحية ، هي واسطة لا غاية . اللهم الاَّ اذا وسَّعنا نطاقها فشملت كل مرافق الحياة ووسائلها وجمالها . فاذا لم تنشىء الفلسفة فينا حبًّا كانت غير جديرة بالانسان . والجمال روح الفلسفة وغرضها الخاص . فهو حياة الفلسفة كما انهُ حياة الحب

الجمال الانساني

الشيء جميل لانهُ مرغوب فيهِ . قال الفيلسوف بندكت سبينوزا : لسنا نهيم بشيء لجماله ، بل نراهُ جميلاً لاننا نهيم . فكل ما يسدُّ جوعاً في نفوسنا فهو جميل . حتى ان الطعام هو في عين الجائع اجمل من الحور العين . وذلك الشاب الراغب في البحث والطلب ، وقد جدَّ واجتهد ، وصبر وحرَّر ، وعاد من المطبعة حاملاً اجمل شيء في عينه ، اي ملازم اول كتاب عني بتأليفه . فما كورة مؤلفاته اجمل جمال في الوجود . حالة كون جيران ذلك المؤلف من فلاح وبقال لا يريان اية قيمة لاوراق ذلك الكتاب ، الاَّ لصرِّ الملح والتفتل أو لمسح أواني المطبخ بعد غسلها

قال نيتشه : الجميل والقبيح كلمتان من خصائص البيولوجيا : فما أضرّ الجنس حسبناه قبيحاً . وما نفع الجنس حسبناه جميلا . قال سندرلند : ليست السماء زرقاء لتسر ناظرنا ، ولكننا ألفنا زرقتها فحسبناها جمالاً . فالجمال قرين النفع . والسرام يفوق جمالها نفعها في عين المعدم ، من ثمّ كان جمال الثوب والشعر والملمس الناعم . فالقبيح ما اضعف الحيوية وشوش الهضم والاعصاب . قال سنتيانا الفيلسوف العصري : الجمال لذة مجسة : وقال سندهل : الجمال هو الاستشعار باللذة : وبهذا القول نحا ستندهل نحو هربرت عن غير قصد

والجمال في الفرد كالجمال في المجموع ، لا يعنى به المرء الاّ وقد استفضل بعد الاكتفاء . فالحب يخلق جمالاً ، كما يخلق الجمال حبّا . وكل ليلى هي أجمل بنات حواء في عين قيسها . فالجمال والحب قرينان ، فان يخلق هذا ذاك خلق ذاك هذا . واصلهما بحسب رأيي ول دورنت مستقر في حفظ النوع ، ولا سيما في التوليد . يعني ان غرض الحب والباعث عليه العلاقة الجنسية . وهذه متى وجدت نحو شخص فاذا لم يكن ذلك الشخص جميلاً في ذاته خلقت له جمالاً . اعني جعلته جميلاً في عين من يحبه ، وان كان جميلاً في ذاته زادته جمالاً عليه ، فمظاهرات الجمال وجواذبه ليست الاّ ملابسات التوليد المقارنة عهد الاستعداد له ولذا حسبت جمالاً . فتورّد الخد ، وتقبب النهد ، واعتدال القد ، وترعرع الصدر ، ودقة الخصر ، وسهل النحر ، وربا المخلخل ، واستدارة الكفل ، ونبت العذار في الذكر — هذه الامور وامثالها — حسبت جمالاً لانها ظاهرات تصحب طور الصلاحية للتوليد وتدل عليه . فيل الذكر للانثى هو خالق الجمال الاول . فليس جمالها انشأ حبه . بل حبه انشأ جمالها . وكل ما صحب عهد البلوغ من الظاهرات فهو جمال مستحب . كذلك التستر بالثياب هو من مزيدات الجمال ، لأن الثياب تستر ما يميل المرء الى رؤيته . فهي نوع من الصد ، والصد من مزيدات الوجد . فكما أن الستور يزيد المرء هياماً في من يحبها جمالة ، كذلك التحجب يزيد المرء رغبة فيهنّ

والمرأة في عرفنا مثل الجمال الاعلى . ولماذا ؟ . لانها مصدر التوليد ، مصدر الجنس ، ومحور آماله ، ومحط رحاله . فلم نحبها لجمالها ، بل رأيناها جميلة لأنا نميل اليها ونحبها . جاء في رواية تايس ما نصه . انا جمال الانثى . فانّى تهرب مني يا ارعن ؟ فانك تراني حيثما التفت ، وأينما اتجهت ، فتراني في نضارة الازهار ، وميلان الاشجار ، وخرير الانهار ، وتغريد الاطيار ، وبهاء الاقمار . بل انك اذا اغمضت عينيك وسددت اذنيك فانك تراني حينذاك في ذاتيتك

كان شرخ الشباب جمالاً عند الاثينيين والاسبرطيين . لان ذلك آذن بالتوليد . فالجمال عندهم قرين القوة ، لذا كان الفن في عرفهم اكتمال الرجولة . اما عندنا فالفن هو اكتمال المرأة . فاذا استشار رجل حبنا فما ذاك الاّ لان قناة الصداقة والاخلاص عندنا كما عند الاغريق من لوازم الحب المقدّسة

ولقد صارت المرأة مثل الجمال الاعلى لانهُ يحبها اكثر مما تحبُّه . وشدة رغبته فيها تزيدها في عينه جمالاً . وقد قيلت هي شهادته — انها أجل منه — لانها تؤثر ان تكون محبوبة على ان تكون مالكة لذا هي تعنى بما يثير هيامه بها . أما هي فبقوته تعنى لا بجماله . فهي تؤثر قوته ، لأن تلك القوة ضامنة سلامتها واطفالها . والدليل على أن الحب خالق الجمال فتورنا في حب من امتلكنا زمامها ، مع كونها لا تزال جميلة ، لذا قيل ان الزواج يقتل الحب . على أنا ما دمنا نحب جمال المحبوب لا يذبل . بهذا الاعتبار الحب حياة الجمال ، لا الجمال حياة الحب

جمال الطبيعة

المحبة علة الجمال لا معلوله . والاصل في الجمال جمال الاشخاص ، لا جمال الاشياء . اما جمال الاشياء فهو فرع عن جمال الاشخاص . فكيف نعلل جمال اشياء كثيرة لا علاقة لها بمحبتنا ، كقوس قزح ، وحدائق الورود والازهار ، والشلالات ، والاودية ، والقصن الرطيب ، وما لا يحصى من انواع الجمال في العالم الخارجي ؟

الجواب : كما ان لكل كلمة في قاموسنا معنيين ، الواحد اصليٌّ اوليٌّ ، والآخر فرعيٌّ ثانويٌّ ، هكذا في رغباتنا ما هو اولي اصليٌّ ، وما هو ثانوي فرعيٌّ . فقد تطور الجهاد لاجل القوت فكان منهُ اليأس والميل الحربي . وتطورت عاطفة حب الجمال الانساني ، او بالحري فاضت ، فتخطت الاشخاص الى الاشياء . فحبنا الطبيعة فرع حبنا الاشخاص ، وناشيء عنهُ . فنحن لا نحب قامتها المشوقة لانها تشبه القصن الاملد . بل احببنا القصن لانهُ يشبه قامتها . ولم نحب وجنتها لانها تشبه الورد . بل احببنا الورود لانها اشبهت وجنتها . فترى ان النعومة والاستدارة ليست جمالاً في الذات ، والا فرمز الكمال عند ارسطوطاليس المربع لا الكروي فنحب الاستدارة والنعومة والبضاضة ، لان هذه الاوصاف من مزايا من نحبها ، وهي الكاعب وما فوق الكاعب من ربات الجمال

كذلك الاصوات الشجية ، التي لها رنة تأسر القلوب ، وكل ما هو لطيف ورقيق في الكون هو جميل في اعيننا لانه يمثل لنا بعض مزاياهنَّ . فحبنا اياهن جعل ما يماثل اوصافهن جمالاً في اعيننا بل انه قادنا الى الاعتقاد في جمال اوصافهنَّ وما ماثله في غيرهن من الاشياء . فلم تكن عين المها جميلة الاَّ لانها اشبهت عين مي

ما رأت مثلك عين حسناً وكمثلي بك صبًّا لم ترَيْ

فالصوت الشجي استفزاز جنسي في آذان الرجال . على ان الصوت لم يستقل بالاتصاف بالجمال واثارة الحب ، وان كان حنوناً . فهنالك الفحن والايقاع ، وما فيها من حفز والحاف واستفزاز ، لايقاظ العواطف للحب

فالموسيقى تلطف خشونة طباعنا ، وترفعنا الى الملأ الاعلى فتخفف الالم ، وتحسن الهضم ، وتعقل المجنون وتفرد الجندي مختاراً الى الموت في ساحات القتال

ولقد اقترن السمو بالجمال (كست) اقتران الانثى بالذكر ، فهو اكثر رغبة في الجمال منه في السمو . وهي اكثر رغبة في السمو منها في الجمال . لذا كان السمو ضالتها المنشودة ، والجمال ضالته المنشودة . من هنا كان حبها السامي في الرجال . قالت احداهن لاحدهم ، لم اكن لاكترث لك لو انك رجل عادي . انما انا كلفة بك لانك عبقري وذو همة شماء

اما هو فيقول لها :

قوامك فتّان وطرفك احور ووجهك من ماء الملاحة يقطر

لذا كانت الانثى ارق من الذكر ذوقاً اذا صح هذا القول

جمال الفن

فاض حبنا ، وتخطى الاشخاص الى الاشياء ، فانتهى ذلك بانشاء الفن . واليك البيان . حمل الذكر في مخيلته صورة حبيبته ، فقرن تلك الصورة بمشهد جميل الكل ، هذا هو الفن فالفن مولدان بيولوجي وتاريخي

١ — بيولوجيًّا . يتولد الفن من غناء القرين ورقصه وجهوده في احراز الازدهار الذي يستميل العاشقين ويستهويهم

٢ — تاريخيًّا . يتولد الفن عن التطرئة والوشم وخش الجسوم والتزين بالملابس على انواعها . ولا سيما ما كان منها فضفاضاً آذناً برؤية الزندين ، والنهدين ، وما فوق الكعبين . ولكن التطرئة الى حين ، والثياب فانية ، فآثر شعب عريق بالخلود كالاغريق اثراً خالداً . فرسم رموز حبه ، وصور آراءه وعواطفه في تماثيل منحوتة خالدة . هذا هو مولد الفن . وبهذا الاعتبار يكون الحب خالق الفن كما انه خالق الجمال . فالملابس ترادفها الزينة اولاً ، لا التحفظ او الاحتياط الصحي . قال داروين انه لما اثر في نفسه تحملهن البرد القارس في فيجي ، عطف عليهن وأمدهن بالاقمشة لوقاية جسومهن من قرس البرد . فما كان منهن الا انهن مزقن تلك الاقمشة شرائط مستطيلة ووزعنها بعضهن على بعض ، للزينة . اليس ذلك ما تفعله الحسان في اوربا واميركا ؟ فانهن يلبسن الفرو صيفاً ، ويحسرن النحر والزندين شتاء . فالملابس عندهم للزينة اكثر مما هي للصحة

***

ولما فرغ الانسان في العصور الخالية من تزيين جسمه عمد الى تزيين الاشياء كالحراب والانصاب والصروح ونحوها . فأفضى به ذلك الى الانصاب والتماثيل . ألا ترى ان ذلك هو الفن . ومع ان

الديانة ليست مصدر الجمال فقد ضحت في سبيل الفن اكثر من كل منبع الا الحب . فالحب اعظم المضحين في سبيل الفن . والفن مدين للحب اكثر مما هو مدين للديانة . فلم تكن الانصاب والتماثيل الراقية في عهد المدنية الا ارتقاء عاطفة حب الجمال بعد عهد البداوة والخشونة . ولم يعن المثال بالحب الا بعد ارتقاء الفن ، فتيخياس دائماً قبل بركستيلس ، هو ناموس عام في كل عصر وفي كل مصر

الجمال الوضعي

بقي في ميدان البحث امامنا المسألة الاساسية وهي : هل للجمال وجود في الخارج ؟ او هو من صور الخيال ؟

من الناحية الواحدة نرى الجمال مختلفاً في مختلف الامم في عصر واحد ، او في الامة الواحدة في مختلف العصور . مثال ذلك ان الجمال عند الهوتنتوت يبدو في ضخامة الشفتين ، وندوب الوشم الازرق . وعند اليونانيين في القوة والاتزان . وعند الرومان في السمو . وفي عصر الاحياء في الالوان وعندنا اليوم في الموسيقى والرقص . ويؤثر اهالي تاهيتي قطس الانوف لذا تجدهم يضغطون على أنوف اطفالهم لاجل الجمال . والنياس — سكان مريدا في مكسيكو — يحرمون الانوف ويتخزمون كما انهم يخددون اسنانهم ويطمسونها . وقد دهش منجو بارك لما علم ان الزنوج يكرهون بياض بشرته

وحتى عند الاوربيين يختلف الجمال في عصر عنه في عصر آخر . فقد كانوا فيما مضى يؤثرون ضخامة الجسم ، بل في عهد الاحياء كانوا يؤثرون الجسوم المثلثة . أما اليوم فانهم يؤثرون الجسوم الهيف

بهذا الاعتبار نرى ان الجمال انما هو في العقل لا في الخارج ، وفي عين الناظر لا في المرئي الجميل . ولكن هنالك مبدءاً واحداً عاماً مطلقاً في الجمال ، وهو ما لابس عهد التوليد ، أو ارتبط بالتناسل . فكل آلة تصلح لما وضعت له هي جميلة . واذا لم تخدعنا النظرة فالجمال أمر بيولوجي . فأجمل منظر في عيوننا الفتاة في عهد البلوغ . او الرضيع وعلى صدرها طفل مملوء صحة ورونقاً . فالجمال كما ارادته الطبيعة هو ازدهار الصحة ونضارتها وسلامة النسل . وهو ما آل الى سلامة الجنس . لا الى وهنه . وكل ما اضعف الجسم وحط من شأن الجنس فهو غير جميل

***

قال إبليس وحكمه جدير بالاعتبار ، بناء على اختباراته الكلية . الجمال مستقل عن الناظر . اي انهُ يرى ان الجمال شيء في الذات لا في العقل . وهو يستند في ذلك الى عمومية استحسان المماثلات عند كل الامم . وحتى هذا مردود وفيه مناقضة للاستقراء كما هو معلوم . على ان فلسفة الجمال والاخلاق قريبتان . وبذا توافق استنتاج افلاطون : — مبدأ الخير يرجع الى ناموس الجمال